الدرس اللغوي وأثره في إبراز المقاصد القيمية والأخلاقية في تفسير "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (النموذج الثاني)

إسماعيل رمضان
باحث بسلك الدكتوراه
مختبر الدراسات الإسلامية والأنساق المعرفية
جامعة شعيب الدكالي كلية الآداب والعلوم الإنسانية
تحت إشراف: الأستاذ الدكتور عبد الجبار لند
ismailramdane80@gmail.com
المملكة المغربية

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على العلاقة، بين أدوات الدرس اللغوي، وأثرها في إبراز المقاصد القيمية والأخلاقية، من خلال تفسير أبي عبد الله القرطبي الموسوم ب" الجامع لأحكام القرآن الكريم".

وذلك بالوقوف على الدرس اللغوي عند القرطبي، وتقديم نماذج للقيم من تفسيره، مع توضيح أن تناول أدوات اللغة العربية، لم يكن عنده وسيلة لشرح الألفاظ؛ وإنما يتجاوز ذلك إلى جعله يتناغم مع القيم السلوكية، والأخلاقية، المبثوثة في التعبير القرآني.

وتبرز نتائج البحث، أهمية الاستفادة من الدراسات اللغوية في فهم القرآن الكريم، وعلاقتها بالثروة التفسيرية، للوقوف على جمال التعبير القرآني، واستكناه أبعاده القيمية والأخلاقية.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الكتاب نورا لأهل العقول والألباب، وانتخب اللسان العربي وعاء لحمل المراد، والصلاة و السلام على أفضل من نطق بالضاد، محمد بن عبد الله الذي اصطفاه ربه وهيأه ليكون قلبه منبعا لوحي رب العباد، فكانت أخلاقه وحيا يمشي بين الأنام، فصلى الله عليه وعلى آله وصحابته الأعلام، الذين نهلوا من معينه الصافي، وشرعة مائه الرقراق الباقي، فرضي الله عنهم وأرضاهم إلى يوم التلاقي.

أما بعد:

يعد التفسير اللغوي من بين المواضيع المهمة، التي تحظى بعناية كبيرة من لدن الباحثين والدارسين؛ وقد بوأه المفسرون مكانة سامقة في مؤلفاتهم؛ لأن به يدرك إعجاز القرآن الكريم، وينقب عن أسراره ومعانيه، والوقوف على مقاصده القيمية والأخلاقية.

وقد بز أبو عبد الله القرطبي أقرانه في هذا المضمار، وهو وإن كان تفسيره كتاب فقه وأحكام، لم يخل من توظيف الدرس اللغوي وأدواته، سواء في تفسير وبيان المعنى، أومن جهة إدراك إعجاز القرآن، وأسراره البيانية، أو من جهة الوقوف على المقاصد القيمية أو الأخلاقية، من خلال الكشف عنها بتوظيف تلكم الأدوات، ولذلك تأتي هذه المحاولة لنفض الغبار عنها في هذه الموسوعة التفسيرية، وسيتم معالجة هذا الموضوع من خلال النقاط الآتية:

إشكالية البحث:

إن التحليل اللغوي عند أبي عبد الله القرطبي، يعد أداة بارزة في تفسيره، وهو وإن لم يكن باستفاضة كما عند أبي حيان الأندلسي، إلا أنه اعتمد عليه في بيان معاني كتاب الله تعالى، وبناء عليه جاء هذا البحث ليجيب عن الإشكال الآتي:

إلى أي حد أسهم التحليل اللغوي، عند أبي عبد الله القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" في الكشف عن المقاصد القيمية، والأخلاقية للقرآن الكريم؟

وكيف وظف أدواته المختلفة، للوقوف على البعد الأخلاقي، والقيمي في النص القرآني؟

أهمية البحث:

تتجلى أهمية هذا الموضوع فيما يلي:

- ✓ كونه موضوعا بكرا، لم يسل فيه مداد، و لم يشرع فيه باب.
- ✓ إنه يكشف اللثام عن الدرس اللغوي وعلاقته بالقيم والأخلاق، مع تقديم أمثلة من تفسير القرطبي على تلكم العلاقة.
- ✓ يبرز أهمية الدرس اللغوي في تحديد القيمة، وإدراك مقاصدها الإيمانية والتعبدية.

أهداف البحث:

تتمحور حول هدف أساس، وهو الكشف عن التفاعل الحاصل بين أدوات الدرس اللغوي، والتفاعل القيمي.

منهجية البحث:

قد اعتمدت في إنجاز هذا البحث على عدة منهجية تتمثل في الآتي:

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المنهج الاستقرائي: وذلك باستقراء بعض الأمثلة من خلال تفسير "الجامع لأحكام القرآن" التي تدل على التفاعل بين الدرس اللغوي والقيم.

المنهج الوصفي: وذلك بتحليل ووصف النماذج وتفسيرها، ووضع اليد على ذلكم التفاعل الحاصل بين الدرس اللغوي، والمقاصد الأخلاقية، في تفسير أبي عبد الله القرطبي.

✍ **المنهج الاستنباطي:** وذلك بالانطلاق من الجزئيات لاستنباط كليات وخلاصات تكون نبراسا للباحثين في هذا المضمار.

تقسيم البحث:

مدخل

التعريف بأبي عبد الله القرطبي.

المبحث الأول: علاقة القيم بالدرس اللغوي في تفسير "الجامع لأحكام القرآن".

المطلب الأول: الدرس اللغوي عند أبي عبد الله القرطبي.

المطلب الثاني: الدرس اللغوي أداة للوقوف على القيم الجمالية والمعرفية لتفسير القرآن الكريم.

المبحث الثاني: القيم الدينية في تفسير القرطبي.

المطلب الأول: نماذج وأمثلة للقيم في تفسير أبي الجامع لأحكام القرآن الكريم

✍ قيمة الصدق

✍ قيمة التواضع

المطلب الثاني: العلاقة بين البناء اللغوي والدلالة القيمية.

المطلب الثالث: الجانب البلاغي ودوره في إبراز المقاصد الأخلاقية.

خاتمة.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مدخل

❖ التعريف بأبي عبد الله القرطبي.

✍ اسمه وكنيته ونسبه:

محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح بإسكان الراء والحاء المهملة الشيخ الإمام أبو عبد الله الأنصاري الأندلسي القرطبي المفسر.[1]

❖ تأثير بيئة الأندلس وبالأخص قرطبة في نحت شخصيته:

✍ شيوخه:

روى عن أبيه أبي محمد، وأبي عبد الله بن نوح، أسند عنهما القراءات.

روى عنه ابنه أبو إسحاق، وأبو عبد الله السهيلي المالكي الضرير.[2]

سمع من الشيخ أبي العباس: أحمد بن عمر القرطبي –مؤلف المفهم في شرح صحيح مسلم –بعض هذا الشرح وحدث عن أبي علي: الحسن بن محمد بن محمد البكري وغيرهما.[3]

✍ ثناء العلماء عليه:

يقول صاحب الذيل والتكملة:" وكان من جلة المقرئين لكتاب الله، القائمين على تجويده، أكتبه طويلا بربض التبانين، وشهر بالفضل والورع والدين، وكان حافظا لفروع الفقه."[4]

يقول ابن فرحون في حق الإمام القرطبي: " كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف.

جمع في تفسير القرآن؛ كتابا كبيرا في اثني عشر مجلدا، سماه كتاب جامع أحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وآي القرآن، وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص، والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات، والإعراب، والناسخ والمنسوخ.

وله شرح أسماء الله الحسنى في مجلدين سماه: "الكتاب الأسنى في أسماء الله الحسنى" وكتاب "التذكار في أفضل الأذكار" وضعه على طريقة التبيان للنووي؛ لكن هذا أتم منه وأكثر علما، وكتاب "التذكرة بأمور الآخرة" مجلدين، وكتاب "شرح التقصي" وكتاب "قمع الحرص بالزهد والقناعة، ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة" لم أقف على تأليف أحسن منه في بابه، وله أرجوزة جمع فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، وله تآليف وتعاليق مفيدة غير هذه.[5]

---

[1] الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (2/ 308). إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت 799هـ) تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور الناشر: دار التراث للطبع والنشر، القاهرة. وأيضا " الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة" المؤلف: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي (ت 703 هـ) الناشر: دار الغرب الإسلامي، تونس الطبعة: الأولى، 2012 م.

[2] الذيل والتكملة 364/4.

[3] الديباج 309/2.

[4] المصدر السابق.

[5] الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (2/ 309).

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وقد كان القرطبي محظوظا إلى حد كبير، حيث قدر له أن يكون من أبناء هذه القطعة من الأرض، فهي عاصمة العلم والدولة آنذاك.

يقول صاحب معجم البلدان:" قرطبة وهي مدينة عظيمة بالأندلس، وسط بلادها، وكانت سريرا لملكها وقصبتها، وبها كانت ملوك بني أمية، ومعدن الفضلاء، ومنبع النبلاء من ذلك الصقع، وبينها وبين البحر خمسة أيام.

قال ابن حوقل التاجر الموصلي: وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل، وسعة الرقعة، ويقال: إنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كذلك فهي قريبة منها، وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعالي البلد متصلة بأسافله من ربضها، وأبنيتها مشتبكة محيطة من شرقيها وشماليها، وغربها وجنوبها، فهو إلى واديها وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع، ومساكن العامة بربضها، وأهلها متمولون متخصصون."[1]

وفاته:

وكان مستقرا بمنية بني خصيب وتوفي بها ودفن في شوال من سنة إحدى وسبعين وستمائة.[2]

المبحث الأول: علاقة القيم بالدرس اللغوي في تفسير "الجامع لأحكام القرآن".

إن اللغة العربية بجميع قواعدها، تعد حاملة للقيم؛ ولذلك اختارها الله تعالى لحمل رسالة الإسلام الخالدة، والإفصاح عن قيم الإسلام الفاضلة، ويمكن أن أتناول هذا المبحث من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: الدرس اللغوي عند أبي عبد الله القرطبي.

الإمام القرطبي، ومن خلال تسميته للتفسير، يظهر أنه عني عناية شديدة بأحكام القرآن عامة، والفقهية منها على وجه الخصوص، وهذا لا يمنع أن تحتوي هاته المدونة التفسيرية، على موضوعات أخرى كعلوم اللغة وما يتعلق بالدرس اللغوي.

يقول القرطبي رحمه الله مبينا منهجه في جامعه: "رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه منتي، بأن أكتب تعليقا وجيزا، يتضمن نكتا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيهما، ومبينا ما أشكل منهما، بأقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف."[3]

فهو يشير هنا إلى أن تفسيره يتضمن نكتا من اللغات، والإعراب، والقراءات،

وبإلقاء نظرة خاطفة على تفسيره يمكن أن نستشف بعض النقاط، وهي على الشكل الآتي:

- **يرى أن اللغة أساس لفهم النص القرآني،** ومن جهلها أخطأ في تفسير اللغة والفقه معا، وهذا ما يدل عليه صنيعه عند ما عقد بابا في مقدمة التفسير، سماه " باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه، وثواب من قرأ القرآن معربا" وذكر فيه النصوص التي تدل على فضل إعراب القرآن.

---

[1] معجم البلدان (4/ 324). بتصرف يسير. المؤلف: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت 626هـ) الناشر: دار صادر، بيروت الطبعة: الثانية، 1995 م

[2] الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (2/ 309).

[3] الجامع لأحكام القرآن 1/ 2-3.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

بالإضافة إلى ما بثه في تفسيره مما سيأتي من الأمثلة التي تدل على اعتماده على اللغة متنا وتركيبا وإفرادا.

- **لم يتحدث عن منهج واضح المعالم**، كما تقدم معنا عند أبي حيان الأندلسي، وإنما يستشف بين ثنايا تفسيره للآيات، وهذا ما ورد في كل الكتب التي ألفت في هذا المضمار[1].
- **فهل من مصادر لغوية متنوعة**[2]، كان يرجع إليها، و لم يفته أن يصوب ما ينبغي تصويبه، وينبه على ما يجب التنبيه عليه، من ذلك ما ورد عند قوله تعالى: " وَلَآ أَنتُم بِمُعجِزِينَ فِي ٱلأَرضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ ٢٢ [سورة العنكبوت,٢٢]

بعد إيراده قول الفراء في الآية يقول رحمه الله: " قال الفراء: معناه ولا من في السماء بمعجزين الله".

وهو غامض في العربية، للضمير الذي لم يظهر في الثاني.

وهو كقول حسان:

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

أراد ومن يمدحه وينصره سواء، فأضمر من، وقاله عبد الرحمن بن زيد.

ونظيره قوله سبحانه:" وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَام مَّعلُوم ١٦٤ [سورة الصّافّات,١٦٤]

أي من له."[3]

فانظر كيف حكم على قول الفراء بالغموض، وهذا لا يقتصر فقط على الدرس اللغوي؛ بل حتى المسائل الفقهية، قد يخالف فيها مذهب الإمام مالك ويصحح ما ينبغي تصحيحه.

المطلب الثاني: الدرس اللغوي أداة للوقوف على القيم الجمالية والمعرفية لتفسير القرآن الكريم.

يتخذ البعد الجمالي في اللغة العربية أشكالا كثيرة، يصعب حصرها، فهي لغة الجمال، والتصوير الفني في أبهى حلة، وكان الدرس اللغوي هو المنطلق الذي على أساسه يشيد صرح ذلكم الإبداع والجمال، ويكفيه فضيلة، أن الله ميز به الإنسان عن الحيوان.

يقول عبد القاهر الجرجاني: " اعلم أن الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويدل على سرائرها، ويبرز مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان، ونبه فيه على عظم الامتنان.

فقال عز من قائل: " ٱلرَّحمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلقُرءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلبَيَانَ ٤ "[سورة الـــرحـــمـــن,١-٤]"[4]

---

[1] ينظر على سبيل المثال "الاتجاه البياني في تفسير القرطبي" رسالة ماجستير للطالب : رضا حسن الحسن .إشراف الدكتور إبراهيم المشني، مكتبة الجامعة الأردنية 2003. وأيضا كتاب مختصر عن الجانب اللغوي مختصر عن الجانب اللغوي عند الإمام القرطبي في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" مثنى علوان الزيدي إشراف الدكتور عبد العزيز حاجي. 2008.

[2]- ينظر " مختصر الجانب اللغوي عند الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن" مثنى علوان الزيدي ص 32.

[3] الجامع لأحكام القرآن 337/13.

[4] أسرار البلاغة ص 4 الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

فبفضل الدرس اللغوي، يتم التعبير عن مكنون العقل، ولولاه لما كان للإنسان أن يعرف كفر من إيمان، ولما عرف فرق بين ذم ومدح، وتهجين.

يقول عبد القاهر الجرجاني موضحا هذه النقطة: "فلولاه لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه، ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه، ولتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها، واستوت القضية في موجودها وفانيها، نعم، ولوقع الحي الحساس في مرتبة الجماد، ولكان الإدراك كالذي ينافيه من الأضداد، ولبقيت القلوب مقفلة تتصون على ودائعها، والمعاني مسجونة في مواضعها، ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة، والأذهان عن سلطانها معزولة، ولما عرف كفر من إيمان، وإساءة من إحسان، ولما ظهر فرق بين مدح وتزيين، وذم وتهجين."[1]

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه شبه جمال البيان بالسحر،

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من البيان لسحرا، أو إن بعض البيان لسحر).[2]

فوصف الرسول صلى الله عليه وسلم هنا البيان بالسحر، هل هو من باب المدح، أو من باب الذم؟

لذلك اختلف العلماء في هذا المضمار، فحمل بعضهم هذا الحديث على الذم؛ والبعض الآخر حمله على المدح.

يقول ابن حجر في هذا الصدد: "قال الخطابي: البيان اثنان:

- **أحدهما:** ما تقع به الإبانة عن المراد بأي وجه كان.
- **والآخر:** ما دخلته الصنعة بحيث يروق للسامعين، ويستميل قلوبهم، وهو الذي يشبه بالسحر إذا خلب القلب، وغلب على النفس، حتى يحول الشيء عن حقيقته، ويصرفه عن جهته، فيلوح للناظر في معرض غيره.

وهذا إذا صرف إلى الحق يمدح، وإذا صرف إلى الباطل يذم.

قال: فعلى هذا فالذي يشبه بالسحر منه هو المذموم.

وتعقب بأنه لا مانع من تسمية الآخر سحرا؛ لأن السحر يطلق على الاستمالة كما تقدم تقريره في أول باب السحر".[3]

فهذا الرأي، يحمل تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم، للبيان بالسحر، إذا كان استعماله في الحق فقط، وأما إذا استعمل في الباطل، فيحمل على الذم، ويكون شبيها بالسحر على وجه الذم، وتعقبه ابن حجر؛ بأنه لا مانع من تسمية الآخر–الذي استعمل في الباطل–سحرا؛ لأن السحر يطلق على الاستمالة.

وهناك رأي آخر، حمل الحديث على الذم لمن تكلف وتصنع في الكلام،

"وحمله بعضهم على الذم لمن تصنع في الكلام، وتكلف لتحسينه وصرف الشيء عن ظاهره، فشبه بالسحر الذي هو تخييل لغير حقيقة.

---

[1] نفسه.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم 5434 كتاب الطب باب " السحر". (5/ 2176)

[3] فتح الباري 237/10. الناشر: المكتبة السلفية – مصر الطبعة: «السلفية الأولى»، 1380 - 1390 هـ

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وإلى هذا أشار مالك؛ حيث أدخل هذا الحديث في الموطأ في "باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله".

وتقدم في باب الخطبة من كتاب النكاح في الكلام على حديث الباب من قول صعصعة بن صوحان في تفسير هذا الحديث ما يؤيد ذلك، وهو أن المراد به الرجل يكون عليه الحق، وهو ألحن بالحجة من صاحب الحق فيسحر الناس ببيانه فيذهب بالحق، وحمل الحديث على هذا صحيح؛ لكن لا يمنع حمله على المعنى الآخر إذا كان في تزيين الحق.

وبهذا جزم ابن العربي وغيره من فضلاء المالكية.

وقال ابن بطال: أحسن ما يقال في هذا أن هذا الحديث ليس ذما للبيان كله، ولا مدحا لقوله من البيان، فأتى بلفظة من التي للتبعيض.

قال: وكيف يذم البيان وقد امتن الله به على عباده، حيث قال: {عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤} [سورة الـــرحـــمـــن,٤] انتهى.

والذي يظهر أن المراد بالبيان في الآية المعنى الأول الذي نبه عليه الخطابي، لا خصوص ما نحن فيه.

وقد اتفق العلماء على مدح الإيجاز، والإتيان بالمعاني الكثيرة بالألفاظ اليسيرة، وعلى مدح الإطناب في مقام الخطابة بحسب المقام، وهذا كله من البيان بالمعنى الثاني. نعم الإفراط في كل شيء مذموم، وخير الأمور أوسطها. والله أعلم."[1]

والذي يهمنا من إيراد شرح هذا الحديث، هو أن البيان نوع من السحر؛ لقوة تأثيره في المتلقي، وأخذه بمجامع القلوب، وسلبه للسمع واللب، حتى كأن السامع قد سحر.

ولا يبلغ الكلام تلكم المنزلة السامقة إلا بالدرس اللغوي، وقواعده الأساسية، التي تضفي رونقا وبريقا على الكلمات والجمل حتى تسيل العبارات كالرحيق المختوم، فتسقي الأرواح، وتأخذ بمجامع القلوب.

وقد شهدنا أهمية الدرس اللغوي، وقواعده في فهم نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية، فلا يمكن لأحد أن يحصل شيئا منهما، ولن يبلغ إدراك معانيهما إلا بالتمكن من ناصية الدرس اللغوي.

يقول الإمام الزركشي: "وعلى الناظر في كتاب الله، الكاشف عن أسراره، النظر في هيئة الكلمة، وصيغتها ومحلها ككونها مبتدأ، أو خبرا، أو فاعلة، أو مفعولة، أو في مبادئ الكلام، أو في جواب، إلى غير ذلك من تعريف، أو تنكير، أو جمع قلة، أو كثرة إلى غير ذلك."[2]

نستنتج من خلال هذا النص، ومما مر آنفا مع أبي حيان، أبعاد الدرس اللغوي في فهم نصوص الوحي قرآنا وسنة، وهذا البعد، هو من أبعاد الدرس اللغوي الأساسية، إذ الفضل يعود إلى الوحي في نفض الغبار عن اللغة العربية، وإحياء ما اندرس من معالمها، وجعلها خالدة تساير التطور البشري عبر الأزمنة والأمكنة وبه بوئت اللغة العربية المكانة السامية، وخلدها التاريخ.

[1] نفسه.

[2] البرهان في علوم القرآن 1/ 311. الناشر: دار إحياء الكتب العربية الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المبحث الثاني: القيم الدينية في تفسير القرطبي.

يعد تفسير أبي عبد الله القرطبي موسوعة تفسريه عظيمة اشتملت على كثير من القيم الجمالية، والدينية وغيرها، بالإضافة إلى كونه مصدرا للأحكام الفقهية وسأقف على ذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: نماذج وأمثلة للقيم في تفسير أبي عبد الله الجامع لأحكام القرآن الكريم.

كما تمت الإشارة إليه سابقا فإن تفسير أبي عبد الله القرطبي تضمن ثروة هائلة من القيم في جميع المجالات، وفي تناغم تام مع قواعد الدرس اللغوي، وسأكتفي بقيمتين، وهما كالآتي:

✍ **قيمة الصدق:**

يقول أبو عبد الله القرطبي عند قول الله تعالى:" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ "

الأولى: قوله تعالى:" وكونوا مع الصادقين" هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين.

قال مطرف: سمعت مالك بن أنس يقول: قلما كان رجل صادقا لا يكذب إلا متع بعقله و لم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف.

الثانية: حق من فهم عن الله وعقل عنه أن يلازم الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار، ووصل إلى رضا الغفار، قال صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا".

والكذب على الضد من ذلك، قال صلى الله عليه وسلم: "إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا" خرجه مسلم[1].

فالكذب عار وأهله مسلوبو الشهادة.[2]

فهذا النموذج القيمي يدل دلالة واضحة على استثمار دلالة الدرس اللغوي في إبراز المعنى الأخلاقي للنص القرآني، حيث وقف القرطبي عند هذه الآية موضحا معنى ما تفيده " مع " وأن من اتصف بصفة الصدق عد مع الأبرار، وتبرأ من أهل النفاق.

✍ **قيمة التواضع:**

يقول القرطبي رحمه الله عند قول الله تعالى:" وَلَا تَمشِ فِي ٱلأَرضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخرِقَ ٱلأَرضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلجِبَالَ طُولا "٣٧

قوله تعالى: (ولا تمش في الأرض مرحا) هذا نهي عن الخيلاء، وأمر بالتواضع.

والمرح: شدة الفرح. وقيل: التكبر في المشي. وقيل: تجاوز الإنسان قدره. وقال قتادة: هو الخيلاء في المشي. وقيل: هو البطر والأشر. وقيل: هو النشاط وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين:

أحدهما مذموم والآخر محمود.

فالتكبر والبطر والخيلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم.

---

[1] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب الحديث رقم 105 -(2607) محمد فؤاد عبد الباقي [ت 1388 هـ] الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة عام النشر: 1374 هـ -1955 م

2 الجامع لأحكام القرآن 289/8. المؤلف: أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، 1384 هـ -1964 م.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

والفرح والنشاط محمود. وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما، ففي الحديث الصحيح" لله أفرح بتوبة العبد من رجل ... " الحديث.[1]

والكسل مذموم شرعا والنشاط ضده.

وقد يكون التكبر وما في معناه محمودا، وذلك على أعداء الله والظلمة.[2]

فهنا القرطبي ينطلق من توضيح دلالة لفظ "المرح" ليبرز أنه يتجزأ إلى دلالتين رئيسيتين:

- التكبر عكس التواضع، وهو مذموم.
- والفرح والنشاط وهو محمود.

وهذا الصنيع من القرطبي يظهر التفاعل والتناغم الواقع بين الدرس اللغوي والدلالة القيمية.

المطلب الثاني: العلاقة بين البناء اللغوي والدلالة القيمية.

إن الدرس اللغوي عند أبي عبد الله القرطبي، لم يكن أداة لفهم القرآن الكريم، وحسب؛ بل هو محرك أساسي لتوجيه المعنى القيمي، ويتجلى هذا الأمر في صنيع القرطبي من خلال ما يلي:

الدلالة الصرفية وأثرها القيمي:

يعد هذا النوع من الدلالات اللغوية أداة مهمة في تفسير القرطبي حيث اعتمد القرطبي على بنية الكلمة، وما تدل عليه أوزانها وصيغها المختلفة من معان، الشيء الذي ينتج عنه استنباط قيم تربوية واخلاقية مختلفة، فهو لا يقف عند اللغة ودلالتها؛ بل يتجاوز ذلك إلى ما تحمله من توجيهات سلوكية وقيمية.

ودونكم مثالا من الجامع لأحكام القرآن يقول القرطبي رحمه الله عند قول الله تعالى:" إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ٢٢٢"

السادسة: لا يجوز أن يقال في حق الله تعالى: تائب اسم فاعل من تاب يتوب لأنه ليس لنا أن نطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه أو نبيه عليه السلام أو جماعة المسلمين وإن كان في اللغة محتملا جائزا. هذا هو الصحيح في هذا الباب على ما بيناه في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى).

قال الله تعالى:" لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ ..١١٧ " التوبة 117.

وقال:" أَلَم يَعلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقبَلُ ٱلتَّوبَةَ عَن عِبَادِهِۦ ١٠٤ [سورة التوبة,١٠٤]

وإنما قيل لله عز وجل: تواب لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه.3

[1] صحيح البخاري كتاب الدعوات باب التوبة الحديث رقم 5950 . المحقق: د. مصطفى ديب البغا الناشر: (دار ابن كثير، دار اليمامة) – دمشق
الطبعة: الخامسة، 1414 هـ – 1993 م

[2] المصدر السابق (10/ 260).

[3] الجامع لأحكام القرآن (1/ 326)

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

فهنا القرطبي يوظف الدلالة الصرفية لإبراز المعنى القيمي والأخلاقي، لصيغة المبالغة من الفعل تاب، وانها تفيد كثرة قبوله سبحانه توبة عباده.

الدلالة النحوية وأثرها القيمي:

يقول القرطبي رحمه الله عند قول الله تعالى:" وَمَن لَّم يَستَطِع مِنكُم طَولًا أَن يَنكِحَ ٱلمُحصَنَٰتِ ٱلمُؤمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَت أَيمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلمُؤمِنَٰتِ ٢٥ [سورة النساء,٢٥]

الثامنة–قوله تعالى: (المؤمنات) بين بهذا أنه لا يجوز التزوج بالأمة الكتابية، فهذه الصفة مشترطة عند مالك وأصحابه، والشافعي وأصحابه، والثوري والأوزاعي والحسن البصري والزهري ومكحول ومجاهد.

وقالت طائفة من أهل العلم منهم أصحاب الرأي: نكاح الأمة الكتابية جائز. قال أبو عمر: ولا أعلم لهم سلفا في قولهم، إلا أبا ميسرة عمرو بن شرحبيل فإنه قال: إماء أهل الكتاب بمنزلة الحرائر منهن.

قالوا: وقوله (المؤمنات) على جهة الوصف الفاضل وليس بشرط ألا يجوز غيرها، وهذا بمنزلة قوله تعالى: (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فإن خاف ألا يعدل فتزوج أكثر من واحدة جاز، ولكن الأفضل ألا يتزوج، فكذلك هنا الأفضل ألا يتزوج إلا مؤمنة، ولو تزوج غير المؤمنة جاز.

فوصف الإيمان في هاته الآية باعتباره قيمة أساسية في جميع حياة المؤمن، أدى إلى اختلاف الفقهاء في فهمها، هل هو شرط لا بد منه، أو هو وصف فاضل، وهذا يؤكد ما سطرناه سابقا من ألأثر الجلي للدرس اللغوي بقواعده المختلفة، في إبراز المقاصد الأخلاقية والقيمية.

المطلب الثالث: الجانب البلاغي ودوره في إبراز المقاصد الأخلاقية في تفسير أبي عبد الله القرطبي.

الجانب البلاغي يحتل مكانة سامقة في تفسير أبي عبد الله القرطبي، فهو ليس عنده مظاهر جمالية يزين بها ويزركش بها تفسيره؛ وإنما يعدها وسائل مهمة للكشف عن المقاصد التربوية والقيم الأخلاقية، التي يحملها التعبير القرآني، فمباحث البلاغة من تشبيه واستعارة، وغيرها يوظفها توظيفا بديعا؛ لإبراز المقاصد السلوكية، والقيمية.

وهذه بعض النماذج تدل على هذا المعنى.

الاستعارة:

يقول القرطبي رحمه الله عند تفسير قول الله تعالى:" وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو" الأنعام 59.

وهو في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب، كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان؛ ولذلك قال بعضهم: هو مأخوذ من قول الناس افتح علي كذا، أي أعطني، أو علمني ما أتوصل إليه به.

فالله تعالى عنده علم الغيب، وبيده الطرق الموصلة إليه، لا يملكها إلا هو، فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه، ومن شاء حجبه عنها حجبه.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ولا يكون ذلك من إفاضته إلا على رسله، بدليل قوله تعالى:" وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء" وقال:" عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول".[1]

فالقرطبي هنا وظف هذا اللون البلاغي في إبراز المقصد القيمي وهو الإيمان بالغيب، فهذه الاستعارة التصريحية حيث صرح بالمشبه به وهو "المفاتح" وحذف المشبه وهو "خزائن علم الغيب" والتي لا يملكها إلا الله سبحانه وتعالى.

وهنا تبرز براعة ابي عبد الله القرطبي في توظيف الألوان البلاغية في تقويم الأخلاق وتوجيه السلوك، واستنباط الهدايات الإيمانية من خلال الآيات القرآنية.

الصور البلاغية البديعة في التعبير الإلهي

يقول القرطبي عند تفسير قول الله تعالى:" والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه...". فاطر 9.

فإن قلت: لم جاء" فتثير" على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدوة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب، أو تهم المخاطب أو غير ذلك، كما قال تأبط شرا:

بأني قد لقيت الغول تهوي وبسهب كالصحيفة صحصحان

فاضربها بلا دهش فخرت وصريعا لليدين وللجران

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياها، ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب. من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدة.

وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل:" فسقنا" و" أحيينا" معدولا بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه.[2]

والأمثلة أكثر من أن تحصى فالإمام القرطبي يوظف أدوات الدرس اللغوي بشكل عام، والجانب البلاغي على وجه الخصوص لإبراز المقاصد القيمية والأخلاقية، واستدرار المعاني والهدايات من النص القرآني.

خاتمة.

وفي ختام هذا البحث يمكن أن نستنتج ما يلي:

أن الدرس اللغوي في تفسير أبي عبد الله القرطبي لم تكن أدواته وسيلة لحل شفرات الألفاظ والتراكيب، وإنما أداة للكشف عن المقاصد السلوكية والقيمية.

أن تفسير أبي عبد الله القرطبي يجسد التكامل المعرفي بين الدرس اللغوي والبعد القيمي.

كما يكشف هذا البحث أهمية الدراسة اللغوية لتفاسير القرآن الكريم، وتحديد العلاقة بين أدوات الدرس اللغوي، والهدايات القرآنية، والمقاصد القيمية والسلوكية.

---

[1] الجامع لأحكام القرآن (7/ 1)

[2] الجامع لأحكام القرآن (14/ 327)

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

علاوة على ما سبق فإن هذا الموضوع يظل مجالا خصبا لمزيد من البحث والتمحيص الذي يجلي العلاقة بين علوم اللغة والتفسير.

والله من وراء القصد وهو يهدي إلى سواء السبيل.

المصادر والمراجع:

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت 799هـ) تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور الناشر: دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة" المؤلف: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي (ت 703 هـ) الناشر: دار الغرب الإسلامي، تونس الطبعة: الأولى، 2012 م.
- معجم البلدان المؤلف: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت 626هـ) الناشر: دار صادر، بيروت الطبعة: الثانية، 1995 م
- "الاتجاه البياني في تفسير القرطبي" رسالة ماجستير للطالب : رضا حسن الحسن .إشراف الدكتور إبراهيم المشني، مكتبة الجامعة الأردنية 2003.
- مختصر عن الجانب اللغوي مختصر عن الجانب اللغوي عند الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن" مثنى علوان الزيدي إشراف الدكتور عبد العزيز حاجي. 2008.
- أسرار البلاغة الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر.
- فتح الباري الناشر: المكتبة السلفية – مصر الطبعة: «السلفية الأولى»، 1380 - 1390 هـ
- البرهان في علوم القرآن الناشر: دار إحياء الكتب العربية الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م.
- صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب الحديث رقم 105 -(2607) محمد فؤاد عبد الباقي [ت 1388 هـ] الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة عام النشر: 1374 هـ -1955 م
- الجامع لأحكام القرآن. المؤلف: أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة: الثانية، 1384 هـ -1964 م.
- صحيح البخاري. المحقق: د. مصطفى ديب البغا الناشر: (دار ابن كثير، دار اليمامة) – دمشق الطبعة: الخامسة، 1414 هـ - 1993 م.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/